

ذاكرة التراب

بنت جبيل



أمراء النصار والتحرير



الإعلاء والإفراج الإلكتروني
www.almaaref.org



جمعية الممارين الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

ذاكرة التراب

بنت جيل





الإعداد والإخراج الإلكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

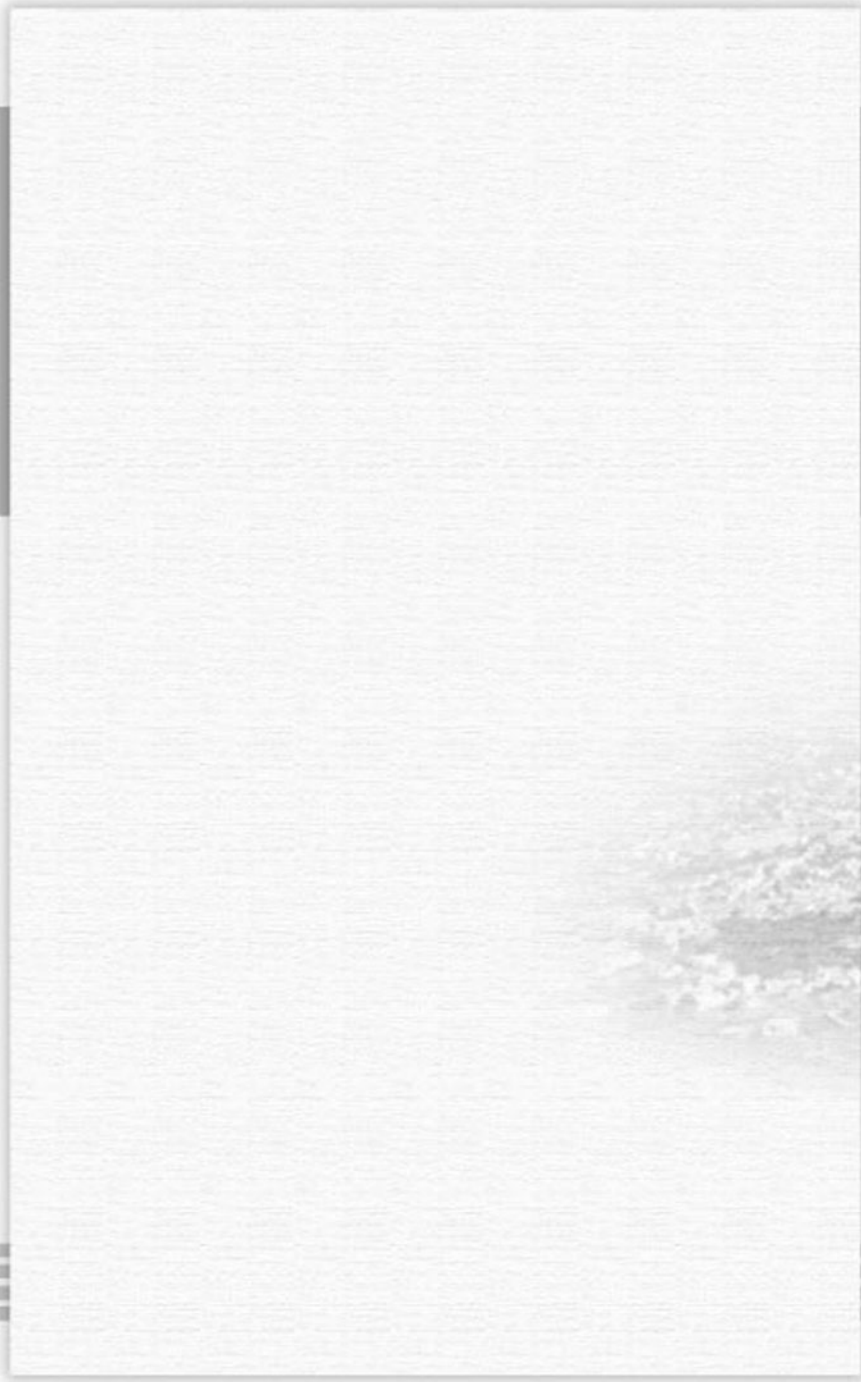
بيروت - لبنان - المعمورة - الشارع العام

هاتف: ١٧١٠٧٠ / ١ - ص.ب. ٢٤ / ٢٢٧ - ٢٥



الإعداد والإخراج الإلكتروني
www.almaaref.org

- قصة مدينة: بنت جبيل.
- العنوان: ذاكرة التراب
- الكاتب: نغم منير ناصر.
- من النصوص الأدبية المشاركة في مسابقة «القرى الشاهدة والشهيدة» التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب الله ورعتها بلدية بنت جبيل.
- الناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- الطبعة: الأولى حزيران ٢٠٠٤م - ربيع الآخر ١٤٢٥هـ.



الإهداء

إلى من سكنت قلوب أبنائها وزوارها كما
سكنت كلماتي وحروفي التي خطت جزءاً من
ذاكرة ترابها بما تيسر لي من معلومات
حاولت جاهدة أن توثق جزءاً من تراث
المقاومة لبلدة شاهدة أتمنى زيارتها: بنت
جبيل.

إلى الشرفاء... كل الشرفاء... منذ الأزل
وحتى الآن... ولآخر الزمان أهدي ذاكرة
التراب.

نغم منير ناصر



بنت جبيل... الله كم اشتقت لك يا بنت جبيل... كنت أدري أنني سأعود إلى بلدي لبنان لكنني كنت أخشى عودة لا تشمل بلدتي المحتلة... ها أنا اليوم أشتّم أريج طفولتي وربيع شبابي في طريقي إليها...

١٥ عاماً أمضيتها في أحضان حقولها ومزارعها قبل أن يدفعنا التهجير القسري إلى مغادرتها...

١٥ عاماً تلقنت في بنت جبيل مبادئ العطاء الأزلي...

«يموت الناس وهم غير سعداء»، كنت قد بدأت بتكرار تلك الجملة التي رأت النور في مسرحية كاليغولا للكاتب الفرنسي ألبير كامو... لا أنكر أنني اعتنقت فكرة أن الموت لا يصطحب معه السعادة، ولكنني وبعد عودتي إلى بلدتي ووطني أدركت أن الابتسامة كانت عبير المقاومين الذين استعدوا لمواجهة الموت فإما النصر أو الشهادة.

كانت السيارة التي تقلني إلى بلدتي بنت جبيل تخترق شوارع العاصمة بعد أن طلبت من السائق أن يتوجه من المطار إلى الضاحية الجنوبية، ومنها تباعاً إلى مناطق أخرى في بيروت، وددت بعد سنوات الاغتراب أن أراها معافاة من حقد الحرب بعد أن خلعت رداءها الليلي، واكتست بهجة الصباح حلة جديدة لها...

لطالما شعرت بحنين لفجر لبنان... لبنان الذي أنهكته

الحروب، لكنها عجزت عن إطفاء شعلة النور في عقول
أبنائه التي أيقنت أن المقاومة التي تولد من رحم التراب
والمعاناة هي أداة النصر والتحرير...

من رحم لبنان، وبمخاض عذري، ولدت المقاومة لتشمل
كثيراً من المناطق اللبنانية، ثم تركزت بوجه خاص في
الجنوب المحتل الذي عانى من ويلات العدو الغاصب
وهمجيته الكثير.

بنت جبيل، بيت صناعة الخزف، كما تكنى كانت إحدى
القرى التي احتضنت المولود الجديد لتكنى في ما بعد
ببيت صناعة المقاومة... كم كنت أتمنى لو كنت أحد أولئك
الأحبة الذين كانت طرقات بنت جبيل تزدهو بصورهم
المرفقة بسيّرتهم الجهادية في نصب تذكارية تخلد ذكراهم
الطيبة في أماكن تنفيذ العمليات ضد الجيش الإسرائيلي
وعملائه. عند الغروب وصلت إلى منزل عائلتي التي قدر
لها أن تهناً بمنازل عزة وكرامة في جنان السماء... كنت
أتمنى رؤيتهم يتسامرون ويتحدثون منتظرين عودتي...
جميل لقاء الأحبة بعد الوداع... آه من الوداع...

في هذه اللحظات، كان الأذان يرتفع معانقاً نسيم
التحرير، ليشدو بالتكبير والتوحيد لله عز وجل.

وددت أن أسارع للصلاة والشكر أيضاً، لكن كلمات السائق

إلى جانبي أيقظتني من حنين الذاكرة والتأمل. كان يقول لي: هل وصلت إلى بيتكم أو ترغب في المتابعة... ابتسمت رغم الدموع التي كانت تبهر في عيني، وقلت: - جزاك الله كل خير هذا منزلي.

أجابني بتحية السلامة لوصولي بعد أن ساعدني بإنزال حقائبي إلى فناء الدار، وهناك جلست إلى جانب شجرة التين الكبيرة ليبدأ الحنين من جديد إلى طفولة يتسلق صاحبها تلك الشجرة بحثاً عن أعشاش الطيور وفراخها... ما زال صوت أمي الحبيبة وكلماتها: «شادي، لا تؤذ الطيور» يداعبان روحي المتعبة المشتاقة إلى أهلي الذين اغتالت أحلامهم صواريخ العدو الحاقد وقنابله... كان فراقهم أشبه بالكابوس وكلم وددت لو كان كذلك، فالفراق دام سنين ولم تبلسمه صحوه تجعلك تدرك أن الملك انتهى فالغوالي عادوا...

تفاصيل ذلك اليوم الحزين حاضرة في ذاكرتي، كنت قد استأذنت أمي لزيارة خالتي بعد أن زارني ابنها لاصطحابي، ودعتني قائلة:

- شادي لا تعذب خالتك، ولا تباعد كالعادة عن منزلها. هيا اذهب وفقك الله... وعدتها بالالتزام بوصيتها لا أدري أي دافع جعلني أعدو مسافة لا بأس بها عائداً إلى حضن أمي... بكيت فقبلتني بخوف.

- بحماية الله، خيراً هل أصابك شيء يا حبيبي؟
كان البكاء سيد تلك اللحظات، كنت أستمع إلى أمي
الغالية، وهي تسأل ابن خالتي عما أصابني، كان تيم
يضحك قائلاً:

- يا خالتي، الدلع سيؤدي شادي.

عندها قبلتني أمي قائلة:

- يا حبيبي هل أزعجك أحد؟ أخبرني.

- لا لكنني اشتقت إليك والله اشتقت إليك...

كانت ضحكات تيم تحرضني على البكاء ثانية، كان
يقول:

- ألم أقل لك، يا خالتي، الدلع؟ هذا من الدلع عندها
قبلتني أمي ثانية.

- حصنتك بحماية الله، الله يرضى عليك هيا اذهبا
الآن فخالتيك تنتظركما.

وأكملت طريقي مع تيم الذي كانت تعليقاته الساخرة
ترافق خطواتنا إلى منزلهم المجاور للحدود الفلسطينية،
كنت أحب خالتي، وأحب زيارتها، لكنني كنت أحب أيضاً
الأرض المجاورة لمنزلها... والتي يغتصبها جنود قتلة
استوطنت جرائمهم عقلي رغم حداثة عمري... كانت
زيارتي لخالتي مصدر قلق دائم لها... كنت أتوارى دائماً

لأراقب تحركات أولئك الجنود، ولطالما وجدني تيم متخفياً بأوراق الشجر.

كان تيم يكبرني بأعوام قليلة، ولكن صداقة بريئة تجاوزت أطر القرابة كانت قد جمعتنا. كان تيم يقص علي ممارسات هذا العدو وجرائمه... تيم الذي فقد والده على أيديهم بات الثأر للوالد الذي اغتاله الصهاينة لدوره الريادي في دعم المقاومة الفلسطينية ورجالها، في ذلك الحين، يشكل هاجسه الأكبر... حزنه أوقد في الولاء للحق والدفاع عن هذه الأرض الطيبة...

كان يصر على أنه سيواجه هذا الظلم ببسالة.. كان يجيبني عن تساؤلات تدور في خاطر كل أطفال بلدة يجاورها الاحتلال ويتربص بها ويدمر أراضيها ومنازلها باستمرار، بحجة إيوائها لعناصر من المقاومة الفلسطينية... هذه المرة وفي ذلك اليوم الذي لا نهاية لآلامه كان منزلنا هو المستهدف.. سمعنا كالعادة قصفاً مدوياً في بنت جبيل، كان دعاؤنا يرافق رائحة البارود والدماء بالسلامة والحماية من شر هذا الانفجار.

في ذلك اليوم تأخر والدي في المجيء لاصطحابي كالعادة من منزل خالتي.. لا أدري ما الذي أصابني حين رأيت جارنا العم أبو مجد يقترب من المنزل وهو يتمتم

لخالتي بكلمات غير مفهومة باتت معلومة حينما بدأت خالتي بالصراخ والبكاء... لم أنتظر لأعلم بما حصل، فنظراتها إليّ أفهمتني كل شيء لقد ضاع كل شيء رحلتكم جميعاً أمي... أبي وأختي الصغيرة...

كانت خالتي تعانقني ودموعها تغسل وجهي.. كان صراخ تيم غريباً... مؤلماً كغروب ذلك اليوم، بدأ صوته يخفت من شدة الصراخ، أما أنا فأه كم وددت البكاء أه كم وددت الصراخ... قتلني الصمت يا أحبتي كما قتلتم تلك القنابل الظالمية، الألم اغتال صوتي ودموعي.. أضعتكم يا أحبتي.. لطالما خفتكم عليّ من الضياع، حبيبتي يارا أتذكركم كم كنت تنشدني لي: ضاع شادي حينما أتأخر في العودة إلى المنزل، يا أختي الغالية أنتم تأخرتم هذه المرة في اصطحابي وأضعتوني ولست أنا من ضاع... أحبكم.. يا الله كم أحبكم...

والدي الحبيب لماذا لم تصحبني باكراً؟

أمي لماذا رحلتكم دوني؟

تيم! أين أنت يا تيم؟ لا تصرخ... خالتي، لا تبكي، سيعودون، لن أنسى تلك الأيام فالصمت بات صديق وحدتي الظالمية... تكلموا كثيراً وكثيراً، حاولوا إبعادي عن بنت جبيل كي أنسى ما حصل، لكنني كنت هناك ولم أرحل...

كنت أمضي معظم يومي أمام دشّم المحتلين أراقب
تحركاتهم... كان تيم يحادثني طيلة ذلك الوقت يذكرني
بألمه أيضاً وبأنّي لست وحيداً فهو أخي، وخالتي ستكون
مقام الأم الحنون، كنت أدري ذلك...

كنت أود أن أغتال الصمت، ولكنه على ما يبدو اغتال
كلماتي وصراخي وحتى دموعي إلى أن جاء ذلك اليوم الذي
استيقظنا فيه وصوت الدبابات يراقص الجدران والمنازل،
وكان التهجير القسري الذي أنطقني بثورة بكاء وصراخ
فجّر كل شيء في داخلي حزني وألمي، فراق أحبتي لكأنه
اليوم أمي، أبي، يارا لن أرحل أحسست بحنين يقيد حركتي
فوق تراب بنت جبيل: ركعت، لن أرحل... لن أرحل...

وكأنّي اليوم أودع أهلي من جديد... لن أشتّم عبيّهم...
لن أسمع ضحكاتهم... كلماتهم... يا بنت جبيل يا أمي... يا
أبي... يا أختي... لن أرحل...

وكان الرحيل فجر ذلك اليوم الخريفي، كان رحيلاً قاسياً
مؤلماً.. بكيت كثيراً... دموعي رافقتني بغزارة إلى مطار
بيروت، كان وداعاً لكل لبنان بمدنه وقراده بعد جهد كبير
أصرّ فيه ابن خالتي المقيم في فرنسا على سفر والدته
وأخيه تيم وأنا بعد التهجير الظالم الذي شرد عائلات
كثيرة، كان الخيار صعباً بالنسبة لخالتي ولكنه كان الأفضل

والأنسب في ذلك الحين. وكان السفر إلى فرنسا بعد أن فقدت كل شيء محبباً إلى قلبي، بالنسبة لتييم كان العيش فيها جحيماً، كان مصراً على العودة فوطنه يناديه وبراعم المقاومة بدأت تثمر، وكان حلمه يتمثل في الانضمام إلى صفوفها وفعلاً غادر فرنسا بعد مدة عائداً إلى لبنان وتحديداً إلى مهد المقاومة بعلمك الهرمل حيث ساعده عمه القيادي البارز في المقاومة الإسلامية بالانضمام إلى صفوفها.

كان تيم شاباً قوي البنية، حاد الذكاء، معرفته بطرقات بنت جبيل ومعالمها وحقولها أكسبته ثقة أبرز المسؤولين في حزب الله لتنفيذ عمليات نوعية بارزة فيها كان تيم موضع الثقة لنجاحه المتكرر في قيادة هذه العمليات، كم كنت أتمنى لو كنت شريكه في ذلك، ولكن خالتي كانت حريصة على أن أكمل تحصيلي العلمي.

كانت تعدني أمانة ينبغي الحفاظ عليها من قنابل الظلم والعدوان. حاولت مراراً العودة ولكن تعلقها بي وحبها لها جعلاني أعيش في بلد يسكنه جسدي الذي أودع روحه أمانة في بنت جبيل...

في عودتي إليها استعدت روحي التائهة في حقولها..
روحي التائهة في أرجاء منزل مهديم عتيق هدمت بعض

جدرانہ وغرفہ بمدافع صهيونية باتت تتلقى من داخله بعد ذلك هجمات مقاومين التجأوا إليه لشن عمليات ضد العدو الغاصب.. كنت سعيداً لمعرفتي بذلك... كان تيم حريصاً على إخباري بأي شيء كضيل بإدخال السرور إلى قلبي...

جميل سفر الذكريات.. كنت أبتسم لجدران منزلنا.. لعباته... وكان هو من بعيد يبتسم أيضاً بقسمات وجهه الجميل... كان يتجه نحوي بشيابه الموهبة.. كان العناق طويلاً، اشتقت لك يا تيم.. اشتقت لك كثيراً...

- ليس مثلي يا شادي... اشتقت لك أكثر.. الحمد لله على سلامتك، عانقت تيم وكأني أعانق فيه لبنان كله.. أعانق فيه الذاكرة والحنين...

وددت أن أقضي ليلتي الأولى، بعد الغياب الطويل، في منزلنا رغم حالة الدمار التي تسوده ولكن تيم أصر على مبيتني في منزله الذي بات منزلاً لي أيضاً بعد استشهاد أهلي..

بعد وصولنا إلى المنزل، تناولت طعاماً أعده تيم الذي أستأذن بالغياب لساعة يتفقد فيها الوضع الأمني للبلدة. اغتنمت هذه الفرصة لأذهب إلى هناك... جلست القرفصاء أراقبهم كعادتي، أمضيت وقتاً برفقة أسئلة كثيرة تراودني

وكان أحدها حاضراً بقوة، لقد خرجوا بعد دخولهم، متى يخرجون من فلسطين.. وكان جواب تيم حاضراً:
- سيخرجون . اطمئن، من يكره البحر لن يسكن الجزيرة طويلاً.

- كنت أعلم أنني سأجده هنا... هلم بنا إلى الداخل فالجو يزداد برودة، أمي ليست هنا كي تعد لك الكمادات الباردة إذا مرضت، قال تيم ضاحكاً.
عدت إلى الداخل متمتماً: أنت محق يا تيم، من يكره البحر لن يسكن الجزيرة طويلاً...

ولكن، ماذا أصاب أمواج هذا البحر الراكد كالمستنقع؟! أين غضب مياهه أمام طاغوت القراصنة الجدد؟! أمضيت مساء ذلك اليوم مستمعاً إلى تفاصيل الدور المهم لبلدتي الحبيبة في احتضان المقاومة. كنت قد طلبت من تيم أن يقص عليّ حكايات الجهاد التي بلسمت تراب بنت جبيل المتعب من الشظايا والقنابل والألغام...

لطالما كانت بنت جبيل شاهدة على حضارات مهمة نشأت على أرضها فالآثار فيها تشهد على ذلك... ها هي اليوم أيضاً شاهدة على مقاومة باسلة خلّدت علمياتها الجهادية ضد العدو الصهيوني. آثار تعانق التاريخ النضالي لهذه البلدة في ملاحم ومعالم لا تمحوها زلازل...

كنت أستمع إلى تيم وشوق كبير أحمله هدية لفجر الغد، فغداً سيصحبني تيم في جولة على أهم المواقع التي حققت فيها المقاومة انتصارات ضد العدو وعملائه...

استيقظت صباحاً، وأشعة الشمس تداعب وجهي... تفتقدت تيم... خشيت ألا أراه، ولكنه كان لا يزال نائماً... سارعت بإيقاظه قائلاً: تيم تيم، هلم بنا لقد أشرقت الشمس فأجابني بكلمات يغلبها النوم.

- هذا ضياء القمر عد إلى النوم.

فضحكت مضيفاً:

- هيا سيدركنا الوقت... أنت وعدتني بأنك .. ستصحبني في تلك الجولة حسناً سأذهب بنفسي.

قلت ذلك متظاهراً بخيبة الأمل، فابتسم لذلك قائلاً وبيده تفريجان عينييه.

- حيلتك تلك باتت قديمة. ثم استند إلي ليقف، مضيفاً:

- ألن تأكل شيئاً؟

فأجبت ضاحكاً بأنني أتبع حمية.

عند السابعة، كنت على موعد مع الحقيقة وأنصارها... في منطقة صف الهواء، كان الهواء عليلاً، يكتنز السلام والمحبة لذكرى ذلك اليوم العظيم، فمنذ سنوات، وتحديداً

عام ١٩٩٥، وفي مثل هذا اليوم الخامس والعشرين من شهر نيسان، كان الاستشهادي البطل صلاح غندور يهدي جبل عامل عملية نوعية استشهادية أودت بعدد من جنود الاحتلال وأصابت آخرين بجراح خطيرة. أخبرني تيم أن سلطات الاحتلال عمدت إلى إخفاء العدد الحقيقي للمقتلى والجرحى، ولكن قيادة المقاومة أكدت في بيان لها أن خسائر العدو كبيرة، كنت سعيداً لتلك المصادفة الجميلة، فالיום يحيي حزب الله ذكرى الاستشهادي البطل صلاح غندور...

ملاك كان اسمه الجهادي... كملاك أهدى السمو لكل الشرفاء.. كملاك اشتاق لجنان السموات... فرحل إليها مسبحاً بحمد الله وشكره لنجاح عملياته الاستشهادية، ودعت ملاك لألتقيه مجدداً في حفل تحيييه بلدة بنت جبيل شكراً وعرفاناً له مساء هذا اليوم.

في الطريق، طلبت من تيم أن نترجل من السيارة، وددت أن أقبل كل حبة تراب في بنت جبيل لكأن العزة موروثية أيضاً، كانت أمي الحبيبة تحكي لي أن أميرة سكنت بلدتنا هذه بعد أن غادرت ديارها جبيل هرباً من زواج مفروض عليها، فأسست مملكة هنا لتكنى في ما بعد بلدتنا ببنت جبيل نسبة لهذه الأميرة التي أصرت على أن تكون سيدة لقرارها وليس لقرارات الآخرين...

في بنت جبيل كان الأهالي يعانون كثيراً من ظلم الاحتلال ولكنهم كانوا أيضاً أسياداً في قراراتهم ومبادئهم...

في الطريق تبادلنا السلام مع أحد أبناء البلدة، أخبرني تيم أن أخا ذلك الشاب استشهد عندما رفض التجنيد الإجباري. في زمن الاحتلال كانت الخيارات ظالمة فإما التجنيد أو الشمع الأحمر للمنازل والتهجير... أبناء كثر انخرطوا قسرياً في جيش العملاء، لكنهم ورغم المخاطر والمصاعب، كانوا عيوناً للمقاومة يبذلون كل الجهد لتحصيل معلومات تفيد المقاومة في تنفيذ عملياتها الجهادية.

جلسنا في فناء أحد المنازل نستريح قليلاً، فلمحنا صاحبه من الداخل فأسرع إلينا يدعونا للدخول. كان تيم محبوباً من الأهالي، بعد تعارفنا رحب بي العم أبو ماهر بمحبة واضحة، أخبرني أن والدي كان عزيزاً عليه وصديقاً حميماً له أصر علينا لتناول الفطور، فقبلنا دعوته بالشكر... دعانا إلى الداخل، ولكنني استأذنته بتناول الطعام في الخارج، فوافق على ذلك مبتسماً، عندها أخبرني تيم أن العم أبو ماهر كان يمدّهم بالطعام والشراب ويؤمن لهم المسكن في أثناء تواجدهم في البلدة، وكان هو ورفاقه

يصرون على تناول الطعام خارجاً رغم خشية العم أبو ماهر عليهم من افتضاح أمرهم والقبض عليهم... كان العم أبو ماهر يتابع حديث تيم مبتسماً، سألته عن أولاده فأجابني بحسرة واضحة. لا أولاد لي.

- ولكن ماذا عن...؟ فأجابني مقاطعاً:

- أكنى بأبي ماهر منذ حداثة عمري. كنت أود أن أرزق بالأطفال ولكنها مشيئة الله، لقد رزقني في ما بعد بتيم ورفاقه الذين باتوا أبناء لي... كنت أخشى عليهم وأنتظر عودتهم من مهماتهم العسكرية والأمنية كما ينتظر الوالد عودة ابنه...

كان كلام العم أبو ماهر مؤثراً. وددت تقبيل يديه... اشتقت لوالدي... كانت ملامح ذلك الرجل الطيب تذكرني بحنان أبي، قلت له ببراءة شاب يحنُّ إلى طفولة قال فيها يوماً: بابا. - اعتبرني ابناً لك أيضاً...

أحس تيم، في تلك اللحظات، بمشاعري فحاول تلطيف أحزاني قائلاً:

- لم لا تتبناه يا عم أبو ماهر، ولكن للأمانة أخبرك بأنه ما زال شقياً.

ابتسمت لكلمات تيم، عندها لمحت زوجة العم أبو ماهر تحمل الفطور في طبق كبير سارع تيم لحمله شاكراً لها،

فرحبت بنا مجدداً مرفقةً سلامها بتلك الأدعية المحببة التي يجود بها أولئك الطيبون... كانت رائحة الفطور شهية.. اشتقت لتلك الأطعمة البسيطة المحلية، كان تيم ينظر إليّ مبتسماً، وهو يقول للعم أبو ماهر وزوجته.

- لقد اشتاق شادي لتلك الأطعمة أكثر من اشتياقه لي.

- ليس أكثر منك، ولكن شدة اشتياقي لكما متشابهة، قلت ضاحكاً.

تناولنا الطعام بشهية واضحة.

كنا نهم بالاستئذان لمتابعة طريقنا عندما اقترب من تيم شاب صغير حاملاً له رسالة شفوية تحثه على الاعتذار مني لعدم إمكانية متابعة المشوار معي. أخبرني تيم أنهم يحتاجونه في أمر ما وأنه سيوافيني لاحقاً إلى المنزل. ودعنا مغادراً إلى عمله بينما أصر العم أبو ماهر على مرافقتي في مشواري.

بعد أن شكرت الخالة أم ماهر على ضيافتها وحسن استقبالها، استأنفت سيري في دروب التحرير، أخذ العم أبو ماهر يقصُّ عليّ ما أحببت سماعه عن بلدتي الحبيبة:

- نعم يا بني، كانت بنت جبيل شاهدة على فجر المقاومة والتحرير كما كانت قبل ذلك شاهدة على الظم والعدوان والاحتلال، لقد قدم أهالي البلدة ما تيسر لهم لدعم

المقاومة التي احتضنتها بالمحبة والشكر. كان وضعنا أليماً، إهانات الاحتلال وعملائه لم تكن تنتهي، عانينا كثيراً من ظلمهم اللامتناهي بعضهم عجز عن احتمال ذلك فترك بيته وأرضه لعدو لا يرحم، والبعض الآخر أصر على البقاء رغم محاولات شتى لتهجيده.

تستطيع أن ترى يا بني، على آخر المنعطف منزل الشهيد يوسف سعد الذي رفض تجنيد ابنه في جيش العملاء، فخرج إليهم يسترجع فلذة كبده فأردوه قتيلاً. وكانت شهادته المباركة حافزاً لأهالي البلدة لاستمرار المقاومة ضد براثن الاحتلال وعملائه، ضعفاء النفوس الذين خانوا عهد الأمانة لوطنهم مقابل حفنة من النقود. لقد حاول حزب الله أن يكسب عودتهم إلى مواقع عزة، ولكن كثيرين منهم رفضوا ذلك فكان أبطال المقاومة لهم بالمرصاد، ولعل من أبرز العمليات ضدهم تلك التي قامت بها مجموعة الشهداء علي ياسين وإبراهيم دقدوق عند الساعة الخامسة من عصر الخميس السادس من تشرين الأول عام ١٩٩٤، في أجواء ذكرى الولادة المباركة للسيدة زينب عليها السلام والذكرى السنوية لمجزرة حولا؛ حيث قامت هذه المجموعة بتفجير عبوة ناسفة بأحد المقرات الأمنية الرئيسية للعملاء في بلدة بنت جبيل الذي يقوم

خلف صيدلية هدفها تمويه دور المقر والتستر على حركته وقد استهدف التفجير اجتماعاً سرّياً برئاسة قائد اللواء الغربي العميل عقل هاشم وحضور عدد من المسؤولين والأمنيين والعسكريين بينهم العميل يوسف هاشم المسؤول الأمني لبلديات يارون ومارون الراس ورميش وعيناتا وقد أدى الانضجار إلى وقوع جميع العملاء بين قتيل وجريح.

أعلن العدو، آنذاك، حالة الطوارئ في مستشفى بنت جبيل فأمر بإخلائها كلياً إفساحاً في المجال لاستيعاب قتلاه وجرحاه، في حين قامت طوافة إسرائيلية بنقل العميلين عقل هاشم ومنير حداد من مستشفى بنت جبيل إلى مستشفى حيفا داخل الأراضي المحتلة.

عرفنا ذلك، وكنا سعداء جداً، فتلك عاقبة الخونة والعملاء لقد كان جواب حزب الله على الخيانة وأتباعها قاسياً.

- هذا صحيح لقد حققت المقاومة الإسلامية اختراقات أمنية ضد جيش العملاء في العشرين من آذار عام ١٩٩٦ فجرت عبوة ناسفة استهدفت العميل حنا إبراهيم هاشم، المسؤول عن الإدارة المدنية التابعة للاحتلال، وهو شقيق العميلين عقل هاشم الذي ذكرته منذ قليل ويوسف هاشم.

- هل كانت علاقته مميزة مع ضباط العدو؟.

- نعم، كانت كذلك، كان يزور فلسطين المحتلة أسبوعياً للقاء ضباط استخبارات العدو ويتخذ مخفر الدرك في بنت جبيل مركزاً له يمارس فيه عمليات الابتزاز في إعطاء التراخيص، ويفرض أتاوات مالية مقابل تسهيل أمور المواطنين. صداقته مع ضباط إسرائيل عززت جبروته وظلمه، لكن المقاومة كانت حاضرة للرد دائماً ضد هذه الممارسات الوحشية. ما زلت أذكر عمليات كثيرة ومتتالية سجلت انتصارات على العملاء في الثاني والعشرين من آب عام ١٩٩٧، قامت المقاومة الإسلامية بتفجير عبوة ناسفة بألية لحديدية على طريق بنت جبيل - عين إبل، ما أدى إلى تدمير الآلية ووقوع من بداخلها بين قتيل وجريح. وبعد ثلاثة أيام، قامت المقاومة أيضاً بتفجير عبوة ناسفة بدورية لحديدية على طريق بنت جبيل - عين إبل، ما أدى إلى سقوط أفراد الدورية بين قتيل وجريح، أحد الجرحى كان برتبة ضابط لقد بات يا بني التاريخ ملك المقاومة أيام كثر شهدت الانتصارات المتتالية للحزب كما شهدناها نحن.

- لاحظت يا عم، أن المقاومة الإسلامية كانت تركز على أيام مباركة وذكرى المجازر لتعلن فيها الولاء للحق والثأر للمظلومين في عمليات بطولية في تلك الأيام، إضافة للأيام الأخرى.

- هذا صحيح يا بني، كان المجاهدون يزدادون حماسة وعنفواناً في هذه الأيام، ولا سيما تلك التي شهدت النصر. ففي الأجواء المباركة لذكرى فتح خيبر كمنت مجموعة الشهيدين عبد الله حسين قاسم وأحمد محمود مهدي في المقاومة الإسلامية عند الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر اليوم نفسه لقوة صهيونية مؤلفة من آية «أم ١١٣» ودبابة سنتوريون تضمان عدداً من الضباط الصهاينة كانتا متوجهتين إلى نقطة المكنن على طريق بنت جبيل - الطيري، أطبق عليها المجاهدون وأمطروها ببوابل من نيران أسلحتهم الرشاشة والصاروخية ما أدى إلى احتراق الدبابة وتدميرها بكشل كامل وسقوط جميع أفرادها بين قتيل وجريح. وحاولت أثناء ذلك قوة صهيونية أخرى مؤلفة من عشرة عناصر تدعمها دبابة ميركافا التقدم إلى تلة شقيف النمل، قرب موقع حدثاً، لدعم القوة الصهيونية المستهدفة، فتصدت لها مجموعة الشهيد علي بدوي في المقاومة الإسلامية، وأوقعت فيها إصابات محققة كما قامت وحدة الإسناد الناري التابعة للمقاومة الإسلامية مجموعة الشهيد حسين ناصر بدك موقعين حدثاً والـ ١٧ ببنت جبيل بالأسلحة المناسبة، ما أدى إلى تدمير بعض الدشم في الموقعين وإسكات النيران المعادية.

وكما ترى، يا بني، لقد تجددت في ذلك اليوم ذكرى
الفتح المبين والمبارك لخبير...

كنت استمع إلى العم أبي ماهر مذهولاً ومدهوشاً، كيف
يمكن لرجل في كهولته أن يشرح بهذه التفاصيل والدقة
تاريخ هذه العمليات وساعة بدئها وحصيلة قتلاها
وجرحاها من دون أن يكون مسؤولاً أو قيادياً في حزب الله،
سألته عن ذلك مذهولاً؛ فقال:

- يا بني أحفظ العمليات الباسلة التي خاضتها المقاومة
في بنت جبيل بكافة تفاصيلها عن ظهر قلب، أحتفظ
بمكان خاص بكل البيانات التي كان يصدرها الحزب في
تلك المرحلة وما بعدها.

هل تستطيع أن تنسى مواعيد جرعات دواء يبلسم
الأمك ويوقف نزيف جروحك المنتفضة بسبب العدوان؟ لا
أظن ذلك يا بني.

كنت فخوراً بالعم أبي ماهر كافتخاري بالمقاومة التي
نجح بعض من عملياتها بفضل دعمه لأبنائها
ومجموعاتها العسكرية. نحن بحاجة لتوارث هذه
التفاصيل كي تبقى المقاومة أمانة في أعناقنا كما أوصانا
سيد شهدائها الشهيد السيد عباس الموسوي، أردت أن
أستمع أكثر ونحن نتابع خطانا في البلدة إلى قصص

النضال المشرفة، ولكن أشعة الشمس الحارة جعلتني أدرك أننا مشينا طويلاً، ولا بد من أن العم أبا ماهر قد أرهقه ذلك رغم تبسمه المتواصل وإصراره على مرافقتي طوال الطريق، شكرته كثيراً فأودعني أمانة العودة لزيارته، فوعده بذلك.

أمام فناء منزله ودعته لأكمل طريقي إلى المنزل وحيداً...

في طريق العودة، مشيت ببطء شديد رغم ازدياد درجات الحرارة في هذه الفترة كنت أتلفت إلى جانبي الطريق العام ثم سلكت طرقاً فرعية ترابية. رأيت أهالي البلدة يواصلون أعمالهم التي بدأت منذ الفجر، بعضهم في الحقول وآخرون في البناء وترميم ما هدمه الاحتلال. كانت بنت جبيل تضج بالمحبة والعمل والعطاء ليمسي الضجيج فيها سلاماً للروح يوفره انتشار لشباب أمني واضب حزب الله على تأمينه في القرى المحررة لنشر الأمن ومساعدة الأهالي في جميع المجالات.

كانت أشعة الشمس قوية، لكنها لم تفلح في جعل الأهالي يُقلعون عن أعمالهم التي تمنيت مشاركتهم فيها. كانوا كخلية النحل في عملهم الدؤوب، أما عن أطفالهم، فمنهم من سارع لمساعدة عائلته، ومنهم من فضل افتراش

العشب الأخضر لاستراحة قصيرة، وآخرون فضلوا اللعب على ذلك كله. كانوا كالعصافير ينتشرون في ساحات البلدة وحقولها وطرقاتها...

لقد عادت الحياة ثانية إلى الجنوب المعافى من الاضطهاد والقهر، وأحمد الله لأنني عدت لأشهد ربيع التحرير في بنت جبيل التي هُجرتُ منها بعد احتلالها. كنت أشهد في عيون أطفالها فرحة لا مثيل لها، فليس هناك أجمل من طفولة تملك أرجاء البلدة ساحة لألعابها لقد كنت أشعر بذلك حينما كنت طفلاً...

كنت أشعر بأن كل شبر في قريتي يشاركني فرحتي. أينما كنت أذهب كنت ألتقي بالسعادة في المزارع، في الحقول والكروم، وكأن كروم البلدة وساحاتها تحولت إلى مشروع طفولة نبتكر فيه ألعابنا الخاصة التي اغتالتها في ما بعد ألعاب مزيفة ابتكرها قتلة لتدمير سلام كنا ننعم به.

ها هي الآن مملكة الطفولة تعود إلى بنت جبيل بشجاعة المقاومين الأحرار الذين عاهدوا الأرض على النصر، فخلدت أعمالهم البطولية بميثاق اعتنقته ذاكرة التراب ميراثاً مقدساً تفاخر به الأمم والحضارات حضارات كثيرة نشأت وكل منها تغنى بأسس ومبادئ خلدها في ذاكرة التاريخ بنت جبيل شهدت ذلك أيضاً، لكنها تفوقت

بالمقاومة التي قدّر لكافة أراضينا العربية أن تشهدها لتتوّج
بذاكرة التراب الذي لا تعبث به ولا تمحوه أي قوة في
العالم... وأنا في طريقي أحببت الكلام أحببت كتابة قصة
أو حتى قصيدة... أحببت أن أرسم...

كل شيء جميل يضيء حبي وعشقي لهذه الأرض تمنيت
ممارسته. تلك النصب التذكارية للمقاومين المنتشرة في
كافة أرجاء البلدة تعلّمك الإبداع بمختلف وسائله.

وصلت إلى المنزل ونشوة الروح ترافقني إليه، فوجدت تيم
ينتظرني برفقة أحد الشباب عرفني إليه، وأخبرني أن
جعفر مجاهد بطل تشهد عملياته ضد العدو بذلك، رحبت
به وباركت له وسام العزة هذا، فبادرني بالشكر والترحيب
والتهنئة بالسلامة شعرت تلك اللحظات بسلام أنعم به
منذ عودتي، فالمقاومة والتحرير يرافقانني في كل شيء
وكان المقاومة باتت في بنت جبيل كغريف الخبز اليومي أو
الماء أو حتى الهواء تصادفك مفرداتها وأحاديثها وتصادفها
في كل حين، عند كل فجر في يومك كله كأبجدية العطاء.
في بنت جبيل أنت مدعو لأحاديث البطولة والمقاومة، مدعو
لتسمو بأمجادهم وتتفاءل بالنصر المتجدد. تناولت الطعام
برفقة تيم وصديقه واستأذنتهم لقيلولة أخلد فيها للراحة
قليلاً، فأخبرني تيم أنه سيغادر إلى عمله بعد قليل، كما أنه

أشار إلى مغلف موجود قربه قائلاً لي: إنه يحتوي أوراقاً توثق عمليات المقاومة التي شهدتها بنت جبيل، شكرته لذلك وتواعدنا على لقاء يضمنا في ساحة البلدة عند الساعة السابعة في الحفل الذي يقيمه حزب الله.

استلقيت قليلاً، فتملكني النوم لدقائق قليلة، فبنت جبيل تملكتني أكثر، فراحة الروح تسمو على راحة الجسد، وذلك ما جعلني أقلب صفحات العز التي أحضرها لي تيم هذه الصفحات توثق عمليات المقاومة لتوثق محبتي لأمي، لأبي، لأختي، لبنت جبيل لكل لبنان.

في ١٩٩٥/٥/١، استهدفت وحدة الإسناد الناري في المقاومة، عند الساعة ٨,٣٠ من صباح الاثنين، مركز الـ ١٧ في منطقة صف الهوا - بنت جبيل، أثناء انعقاد اجتماع أمني وعسكري لقادة العدو الصهيوني مع ضباط ميليشيا العملاء اللحيدين بداخله واحترق جراء ذلك آليتان، وسقط عدد من الجنود الصهاينة وعناصر لحديين بين قتيل وجريح.

- في ٣,٥٠ من بعد ظهر اليوم نفسه، تجمع للعدو الصهيوني في موقع حداثا وعلى الفور، قامت وحدة الإسناد الناري في المقاومة الإسلامية باستهدافه بالأسلحة المناسبة محققة إصابات مباشرة فيه.

- في ٩٥/٦/٦، عملية نوعية في بنت جبيل استهدفت فيها العميل لطفي بزي بانفجار عبوة ناسفة أمام منزله ما أدى إلى مقتله.

كنت أقرأ وأقرأ.. أقرأ لي وأقرأ لهم، لأحبتي، أمي، أبي، أختي، كانوا حولي لبنان كله أيضاً كان بقربي يزهو مثلي بتلك المقاومة الباسلة... كنت سعيداً وسعادتني تلك كانت تنسيني خيبة أملي لعدم مشاركتي في الدفاع عن وطني، ولكنني في الوقت نفسه كنت أعلم بأن إجازتي قصيرة وأيام معدودة تفصلني عن السفر إلى فرنسا. عملي كطبيب حدّ من إجازة طويلة أستفيق منها من غربة جعلتني أحياء بحنين دائم إلى ربوع بلادي التي تستعد بعد أسابيع لإحياء ذكرى النصر والتحرير. كنت أنظر من النافذة وأفكار كثيرة ترافق الحقول والطرق المحيطة بالمنزل، كنت أتمنى أن أعود إلى فرنسا بعد أن تشهد عينايا احتفالات التحرير في الخامس والعشرين من أيار. كذلك أحببت أن أرى منزل عائلتي ولأنفض الدمار وأعيد بناءه. كان تيم قد وعدني بأن يجعله كذلك بعد أن أوصيته بأن يدلني على ورشة عمار لترميمه وإعادة بنائه. كانت البلدة تضجّ بورشات البناء والصيانة، وكنت أحتاج إلى الوقت كي أجد عمالاً لديهم الوقت الكافي لذلك بعد أن انتشروا في أغلب المنازل إلى

جانب أصحابها يبنون معاً لينعموا بسلام العودة إلى ديارهم، تمنيت أن أشعر بذلك أيضاً عودة إلى بلدي أسكن فيه بعد أن سكن روحي وعقلي، فالأوطان تستوطننا، لذلك يجد المرء نفسه دائماً في حنين إليها حتى وهو بين ربوعها.

تنبّهت إلى أن موعد الاحتفال بات قريباً، وذلك دفعني إلى الإسراع في تحضير القهوة. احتسيتها قبل مغادرتي إلى ساحة البلدة. وصلت إلى هناك بعد أن التقيت في طريقي أحد أصدقائي الذي كان يشاركني المرحلة التي عشتها في بنت جبيل. سعدت جداً لرؤيته، وقد بادلني الشعور نفسه تحادثنا أثناء الطريق، سألته عن أخبار أصدقاء كثر فأخبرني بأننا سنرى عدداً منهم في الاحتفال وكانوا هناك مجتمعين، كانوا يبتسمون لي وسارعوا للترحيب بي صحيح أنهم كباروا ولكن ملامحهم لم تتغير، ولم تجعلني أخطئهم كما سارعوا لعناقي كذلك سارعوا لمعاتبتي لعدم مراسلتهم. أخبروني أنهم كانوا يستعدون لزيارتي عندما أخبرهم تيم بعودتي، كنت سعيداً للقاء بهم شعرت أنني أسترجع عذوبة تلك الأيام، جلست بقربهم أنتظر قدوم تيم، ولمحته من بعيد يلوح بيده، تقدم صوبنا وبادرنا بالسلام قال لي وهو يضحك عالياً.

- بعد غياب اجتمعت العصابة من جديد، كان الله في عون أهالي البلدة.

ضحكت وأصدقائي لكلماته تلك، ودعونا للجلوس معنا، بعد قليل أعلن عريف الحفل البدء، وكانت خير بداية آيات من الذكر الحكيم، بعد ذلك ألقى أحد مسؤولي الحزب كلمة شكر ووفاء لملاك المقاومة الإسلامية وتبعه أحد المجاهدين ليلقي كلمة العهد لاستكمال مسيرة الاستشهادي البطل، كانت الكلمات تتوالى من أصدقاء ملاك وأقربائه، وكنت أنا أرافق ذلك بالذكرى والحنين كانوا يرافقونني بوجودهم في هذا الاحتفال كأنهم قدموا أيضاً ليشكروا ملاك لثأره لهم أمي، أبي، يارا، إنهم بقربي كالعادة أشعر بوجودهم فابتسامة يارا حاضرة في روحي، دعاء أمي لي بالخير وحنان والدي وعنضوانه حاضران أيضاً في وجداني، شكراً صلاح غندور لك ولكل أخوتك الأبطال. كانت هي أيضاً سعيدة مثلي نعم، فالكل شهد ابتسامتها بعد التحرير.

كنا نحتفل بعودتها لنا، وكانت تحتفل بعودتنا إليها. وددنا جميعاً تقبيل ترابها وددت عناق تلك الشاهدة الشهيدة... بنت جبيل... يا الله... كم اشتقت لك.. كنا جميعاً نحیی ذكری استشهاد ملاك، فنحیی مع ذکراه

محبتنا وولاءنا لتلك الأرض الطيبة التي امتزج ترابها
بدماء صلاح ورفاقه لتسمو بذاكرة التراب التي ستحفظ
هذا الجهاد المشرف.

انتهى الاحتفال ولم تنته مشاعر الولاء لبلدتنا
الحبيبة، التي أعلنها الأمين العام لحزب الله السيد حسن
نصر الله عاصمةً للتحرير فباتت في عيون أحباء المقاومة
الخطوة الأولى لتحقيق النصر والتحرير الشامل لقد كنا
جميعاً نجدد المحبة لها، لملك، للمقاومة الباسلة ولك، نعم
لك يا لبنان.

أمضيت أيام إجازتي المتبقية بصحبته زرت مع أصدقائي
أماكن عدة في وطني الحبيب استرجعت معهم أجمل الأيام،
وجددت صداقتي لهم، وعندما حان موعد السفر عدت إليها
قبلت ترابها وحملت منه بعد أن أوصتني خالتي بجلب
حفنة لها ورحلت ودعتهم جميعاً ووعدتهم بعودة قريبة لا
رجعة فيها، إلى بيروت.. برفقة تيم غادرت حبيبتي بنت
جبيل في طريقي إلى هناك أوصاني تيم بأن أعود سريعاً
برفقة أمه كانت خالتي أيضاً تعشق العودة معي، لكن
مرضها جعلنا نرجى ذلك لحين تحسن صحتها.

وصلنا إلى المطار، هذه المرة أيضاً رافقتني الدموع إليه
لكنها كانت مختلفة لم تكن دموع الحسرة والحزن والألم

بل كانت دموعي عنواناً للنصر وولاء له ولرواده وأنصاره
عانقت تيم، وكالعادة عانقت معه لبنان كل لبنان، وقبّلتها أما
تلك فكانت قبلة لها... لك أيتها الحبيبة أيتها، الشاهدة
والشهيدة قبلة وفاء وعهد بالعودة لك يا بنت جبيل، يا
ذاكرة التراب.

